وأنفي. فاستجابَ الله دعاءه، ورزَقَه الشَّهادة، ونُقِلَ من الطُّور إلى القُدْس، فدفن بتربته بمامَلَّه، وهي المقبرة التي تزار بالقدس الشَّريف.

وفيه توفيتْ بدمشق العالمة المعروفة بدهن اللُّوز[١]، وكانت شيخة العالمات بدمشق في ربيع الآخر.

وفيها توفيتْ بنت بورنجان بدمشق، وهي آخر بناته وفاةً، وانتقل ما خلَّفته من الأملاك إلى الوقف المشهور عن أختها الكبرى بنت العضبية[٢].

وفيها توفي الشجاع محمود، المعروف بالدّماغ[٣] في ذي القَعْدَة، وكان من أصدقاء العادل في زمن الشبيبة، وبقي معه في زمن السلطنة مضحكاً له، وحصلت له ثروة عظيمة، وداره بدمشق جعلتها زوجته عائشة مدرسة للفريقين[٤]: الحنفية والشافعية، بحضرة باب الفرج[٤].

ثم دخلتْ سنةُ خمس عشرة وست مئة

ففيها نزلتِ الفرنج على دِمْياط في ربيع الأول، وكان العادل بمرج الصُّفَّر،

---

(١) ذكرها الصفدي في «الوافي بالوفيات»: ٣/ ٢٦٩ في ترجمة ابنها قاضي الخليل محمد بن عبد القادر بن ناصر بن الخضر بن علي الأنصاري قال: ويعرف بابن العالمة، ثم ذكر أن أمه كانت عالمة تحفظ القرآن، وشيئاً من الفقه والخطب والمواعظ، وتكلمت في عزاء السلطان الملك العادل، وتعرف بدهن اللوز.

قلت: وكلامه لا يستقيم إذا صحت وفاتها في هذا العام، إذ كيف تكلمت في عزاء العادل، وقد توفيت قبله!

ثم ذكر ترجمة أخرى لابن آخر لها سماه أحمد بن أسعد بن حلوان الحكيم البارع، المتوفى سنة ٦٥٢ هـ، انظر «الوافي بالوفيات»: ٦/ ٢٤٦ ـ ٢٤٧.

(٢) في (ب) و(ك) و(ع): العضبة، وفي (س) خرم مقدار ورقة.

(٣) له ترجمة في تاريخ الإسلام (ت ٢٥٥، وفيات سنة ٦١٤ هـ)، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٤ هـ)، السلوك: ج١/ ق١/ ٢٢٣، الدارس: ١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧، شذرات الذهب: ٥/ ٦١، منادمة الأطلال: ٩٧، ١٧١.

(٤ ـ ٤) ما بينهما ليس في (ك) و(ع).

فبعثَ بالعساكر التي كانت عنده إلى مِصْر إلى ابنه الكامل في مقابلة الفرنج، وأقام المُعَظَّم بالسَّاحل بعسكر الشَّام في مقابلة الفرنج.

١٠٩ وفيها استدعى العادِلُ ولَدَه المُعَظَّم، وقال له: قد بنيتَ هذا الطُّور، وهو يكون سبباً لخراب الشَّام، وقد سَلَّم الله مَنْ كان فيه من أبطال المسلمين والسلاح والذَّخائر، وأرى من المصلحة خرابَهُ ليتوفَّر مَنْ فيه من المسلمين والعُدَد على حِفْظ دمياط، وأنا أعوِّضك. فتوقَّفَ المعظم، وبقي أياماً لا يدخل إلى العادل، فبعث إليه[1] فأرضاه بمالٍ، ووعده في مِصْر ببلادٍ، فأجابه، فبعث، فنقل ما كان فيه من العُدَد والذَّخائر إلى القُدْسِ وعجلون، والكَرَك، ودمشق.

وفيها في يوم الجمعة ثاني عشر ربيع الآخر كَسَرَ الملكُ الأشرفُ ملكَ الرُّوم كيكاوس، وسببه أنَّ الأشرف جَمَعَ عساكر الشَّرْق وعسكر حلب، ودَخَلَ بلدَ الفرنج ليَشْغَلَهُمْ عن دِمْياط، ونَزَلَ على صافيتا، وحِصْن الأكراد. وكان العادلُ بمرج الصُّفَّر، وتقدم إلى عالقين، فخرج ملكُ الرُّوم، ووصَلَ إلى رَعْبان يريد أن يُلِمَّ بحلب، ونزل إليه الأفضل من سُمَيْساط، وأخذوا رَعْبان وتل باشر، وبلغ الأشرف، فعاد من صافيتا إلى حلب، وقد سبقه ملكُ الرُّوم إلى مَنْبِج، وتقدَّم بعضُ عسكرهم إلى بزاغة، فرحل الأشرف، فنزل باب بزاغة، وقدَّم العربَ بين يديه، فكسروا الرُّوم، ورجعَ صاحِبُ الرُّوم إلى بلاده، وأكثر ما نكى فيهم العرب، ورجَعَ الأفضلُ إلى سُمَيْساط، واستردَّ الأشرف رَعْبان وتل باشر، وأعطاهما لصاحب حلب، وبعثَ الأشرفُ سيفَ الدِّين بن كهدان، والمبارز بن خُطْلخ نجدةً إلى دِمْياط، وخَطَبَ صاحِبُ آمد الصَّالح محمود بن أُرْتُق للرُّومي، وقطع خُطْبَةَ العادل.

وفيها أخَذَ الفرنجُ النَّازلين على دِمْياط بُرْجَ السِّلْسِلة في آخر جُمادى الأولى،

(١) من هنا يبدأ خرم في الأصل، ينتهي بنهاية حوادث سنة (٦١٥ هـ)، وهي آخر هذا الجزء، ويبدأ الجزء الثاني بحوادث سنة (٦١٦ هـ).

فأرسل الكاملُ إلى أبيه العادل شيخَ الشُّيوخ صدرَ الدِّين يُخْبره، ويستصرخ به، فلمَّا اجتمع بالعادل أخبره، فَدَقَّ بيده على صَدْره، ومَرِضَ مَرَضَ الموت.

قلت: وأذكر وأنا بدمشق حين بلغَ النَّاسَ أخذُ بُرْجِ السِّلْسِلَة، وقد شَقَّ على مَنْ يعرفه مشقَّةً شديدة، منهم شيخُنا أبو الحسن السَّخاوي رحمه الله، ورأيته يضرب يداً على يد، ويُعَظِّم أمر ذلك. وسمعتُ الفقيه عِزَّ الدِّين بن عبد السَّلام يسأله عنه، فقال: هو قُفْلُ الدِّيار المِصْرية .

وصَدَقَ رحمه الله، فإني لما رأيته في سنة ثمانٍ وعشرين ـ كما سيأتي ذكره[1] ـ بان لي صِحَّةُ ما أشار الشيخ إليه، وذاك أنه بُرْجٌ عالٍ، مبنيٌّ في وسط النيل، ودمياط بحذائه على حافَةِ النِّيل من شرقه، والجيزة بحذائه على حافة النيل من غربه، وفي ناحيته سِلْسلتان تمتد إحداهما على النيل إلى دمياط، والأُخرى على النِّيل إلى الجيزة، فتَمْنَعُ كلُّ سِلْسلة عبورَ المراكب من ناحيتها إذا أُريد ذلك حين قتال العدو، فهو قُفْلُ البلادِ بالدِّيار المِصْرية، إذا أُرتقت السِّلْسِلتان امتنع على المراكب العبورُ إليها، ومتى لم تكن السِّلْسلة عَبَرَتِ المراكبُ، وبلغتْ إلى القاهرة ومِصْر، وإلى قوص وأسوان، والله المستعان.

وفيها في جُمادى الآخرة التقى المُعَظَّم بالفرنج على القيمون، فَنُصِرَ عليهم، وقَتَلَ منهم مقتلةً عظيمة، وأَسَرَ من الدَّاوية مئة فارس، وأدخلهم القُدْسَ منكسةً أعلامُهُم.

وفيها وصلَ رسولُ خوارَزْم شاه علاءُ الدِّين محمد بن تُكُش إلى العادل، وهو بمرج الصُّفَّر، فبعث في الجواب الخطيبَ جمال الدين محمد الدَّوْلعي الشَّافعي، خطيبَ جامع دمشق بعد عَمِّه، ونجم الدين خليل بن علي الحنفي ١١٠
قاضي العسكر، فوصلا إلى هَمَذَان، فوجدا الخوارزمي قد اندفع بين يدي

(١) ص ٢٣ من الجزء الثاني.

الخطا والتَّاتار[١] قد خامر عليه عسكره، فسارَ إلى حَدِّ بخارى، فاجتمعا بولده جلال الدين، فأخبرهما بوفاة العادل، فرجعا إلى دمشق.

وكان الخطيبُ الدَّوْلعي قد استناب مكانه في الخَطَابة بجامع دمشق ابنه الشمس يونس، ولم يكن له أهلية ذلك، فسعى القاضي زكي الدين وأكابر البلد في عَزْله، وتولية الشيخ الموفَّق عمر بن يوسف خطيب بيت الأبار إلى أن يقدَمَ الدَّوْلعي، فكان يسكُنُ بالمدرسة العزيزية في البيت الأوسط القِبْلي من البيوت السُّفْلى، ويكرِّرُ الخُطَب في بيته ذلك وفي إيوان المدرسة، ويخرج في أوقات الصَّلوات إلى الجامع يُصَلِّي بالنَّاس، ثم يرجع، ويوم الجمعة يكون في بيت الخَطَابة يخرج منه بالأُهبة السوداء إلى المنبر، فيخطب ويصلِّي، ثم يرجع، فينزعُ السَّواد، ويمضي إلى بيته بالمدرسة إلى أنْ قَدِمَ الخطيبُ الدَّوْلعي، فَرَجَعَ إلى مكانه ومنصبه.

وفيها توفي داود ابن أبي الغنائم أبو سليمان[٢] المُلْهَمي، من بني مُلْهَم، الضَّرير، كان يسكن رباط المأمونية ببغداد، وكان على رأي الأوائل، وإنما كان يتستر بمذهب الظاهرية، وكان موته في المحرم، ودفن بالشُّونيزية، وقد جاوز السبعين، ومن شِعْره:

إلى الرَّحمن أشكو ما أُلاقي غداةَ غَدَوْا على هُوْجِ النِّياقِ
نَشَدْتُكُمْ بمَنْ زَمَّ المطايا أمَرَّ بكُمْ أمرُّ من الفِرَاقِ

---

(١) كذا في النسخ الخطية بزيادة: والتاتار، وهي ليست في «مرآة الزمان»، وهو الصحيح، لأن أول ظهور التتار كان سنة (٦١٦ هـ)، كما سيأتي ص ٣٢٥ من هذا الجزء.

(٢) له ترجمة في معجم الأدباء: ١١/ ٩٣ ـ ٩٤، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، التكملة للمنذري: ٢/ ٤٢٠، تاريخ الإسلام (ت ٢٨١، وفيات سنة ٦١٥ هـ)، معرفة القراء الكبار: ٣/ ١١٧٨، المختصر المحتاج إليه: ٢/ ٦٤ ـ ٦٥، الوافي بالوفيات: ١٣/ ٤٥٨ ـ ٤٥٩، نكت الهميان: ١٥٠، غاية النهاية: ١/ ٢٧٨، لسان الميزان: ٣/ ٤٠٩.

وهــل داءٌ أشــدُّ مــن الـتَّــنــائــي   وهــل عـيــشٌ ألــذُّ مــن الـتَّـلاقــي(١)

وفيها توفي القاضي شرفُ الدِّين، أبو طالب عبد الله بن زين القُضَاة عبد الرحمن بن سُلْطان بن يحيى بن علي، القُرَشي الدِّمَشْقي(٢).

ولي القضاء بدمشق نيابةً عن محيي الدِّين بن الزكي، ثم عن ابنه زكي الدين الطَّاهر، وهو ابنُ عمهما يلتقي نسبُ الجميعِ إلى يحيى بن علي المذكور، وهو أول من دَرَّسَ بالمدرسة الرَّواحية، ثم بالمدرسة الشَّامية الحُسَامية، وكانتْ وفاته في شعبان يوم الأحد ثالث عشر شعبان المذكور، وصُلِّي عليه بجامع دمشق، ودُفِنَ عند مسجد القَدَم، وهو [الذي توجد علامته على الكتب المسجلة: الحمد لله وهو المستعان.

قال أبو](٣) المُظَفَّر: وكان فقيهاً فاضلاً، نَزِهاً، لطيفاً، عفيفاً(٤).

وفيها توفي أبو الحسن علي بن أحمد بن روح، القاضي المعروف بابنِ الغُبَيْري(٥).

---

(١) هذا البيت ليس في (ك) و(ع) و(س).

(٢) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، التكملة للمنذري: ٢/ ٤٣٧ ـ ٤٣٨، تاريخ الإسلام (ت ٢٨٨، وفيات سنة ٦١٥ هـ)، الوافي بالوفيات: ١٧/ ٢٥١ ـ ٢٥٢، طبقات الشافعية للإسنوي: ١/ ٥٣٥، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، الدارس: ١/ ٢٦٧، ٢٧٩، شذرات الذهب: ٥/ ٦٣.

(٣) ما بين حاصرتين من (ك) و(ع) و(س).

(٤) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ).

(٥) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، التكملة للمنذري: ٢/ ٤٤٣ ـ ٤٤٤، تاريخ الإسلام (ت ٣١٠، وفيات سنة ٦١٥ هـ)، المختصر المحتاج إليه: ٣/ ١٢٥، الوافي بالوفيات: ٢١/ ١١٠ ـ ١١١، طبقات الشافعية للسبكي: ٨/ ٢٩٤ ـ ٢٩٥، طبقات الشافعية للإسنوي: ٢/ ٢٥١، توضيح المشتبه: ٦/ ٣٧١، تبصير المنتبه: ٣/ ١٠٢٦.
وقد تابع أبو شامة في اسمه سبط ابن الجوزي في «مرآة الزمان»، واسمه في سائر مصادر ترجمته: علي بن روح بن أحمد.

كان نائباً عن القُضَاة ببغداد، صَحِبَ أبا النَّجيب السُّهْرَوَرْدي، وتفقَّه عليه، وقرأ العربيةَ على ابن العَصَّار، وكان شيخاً كَيِّساً، فاضلاً متواضعاً، وكانت وفاته في رمضان، ومن شِعْره:

وقد كنتُ أشكوك الحوادثَ بُرْهةً واستمرضُ الأيَّامَ وَهْيَ صَحَائحُ
إلى أنْ تَغَشَّتْني وقِيْتَ حوادثٌ تُحَقِّقُ أنَّ السَّالفاتِ مَنَائحُ

وفيها توفي القاضي عمادُ الدِّين بن الدَّامَغاني(١)، الحنفي، قاضي القضاة
١١١ ببغداد، واسمه أبو القاسم عبد الله بن الحسين.

ولد في رَجَب سنة أربعٍ وستين وخمس مئة، وتفقَّه على مَذْهب أبي حنيفة، وعَرَفَ الفرائض والحساب، وقسمة التَّركات، مع السَّمْتِ والوَقَار، والدِّين والعِفَّة. وأوَّلُ ولايته القضاء في سنة ستٍّ وثمانين وخمس مئة، وعُزِلَ في رجب سنة أربع وتسعين وخمس مئة، فأقام ثماني سنين قاضياً، ثم أعاده ابنُ مهدي في سنة ثلاثٍ وست مئة، ثم عُزِلَ في سنة إحدى عشرة وست مئة، فكانت ولايته الأخيرة تسعَ سنين وشهوراً، وتوفي في ذي القَعْدة، وصُلِّي عليه بالنظامية، ودفن بالشُّونيزية.

سَمِعَ الحديثَ من أبيه أبي المُظَفَّر الحسين بن أبي الحسين أحمد قاضي القضاة، ومن عَمِّه أبي الحسن علي قاضي القضاة، ومن أبي الفتح بن المَنْدَائي، وغيرهم.

---

(١) له ترجمة في مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، التكملة للمنذري: ٢/٤٤٨، تاريخ الإسلام (ت ٢٨٧، وفيات سنة ٦١٥ هـ)، العبر للذهبي: ٥/٥٦، المختصر المحتاج إليه: ٢/١٤٢ ـ ١٤٣، الوافي بالوفيات: ١٧/١٣٧ ـ ١٣٨، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، الجواهر المضية: ٢/٣٠١ ـ ٣٠٣، النجوم الزاهرة: ٦/٢٢٣، الطبقات السنية: ٤/١٦٣ ـ ١٦٤، شذرات الذهب: ٥/٦٣.
وقد وصفه المنذري: بالشافعي، وهو خطأ.

وفيها توفي السُّلْطان الملك العادل[1]، سيفُ الدِّين، أبو بكر محمد بن أيوب، وكنيته أشهر من اسمه.

سُئِلَ عن مولده فقال: فتوح الرُّها، يعني لما فتحها الأتابك زَنْكي والد نور الدين سنة تسع وثلاثين وخمس مئة، فيكون عمره ستاً وسبعين سنة. قيل: كانت ولادته ببَعَلَبك لما كان والدُه واليها مِنْ قِبَلِ زَنْكي، ونشأ في خدمة نور الدين بن زنكي مع أبيه وأخوته، وحَضَرَ مع أخيه صلاح الدين في فتوحاته وغزواته. وقام أحسنَ قيامٍ في الهُدْنة مع الإنكلتير ملك الفرنج بعد أخذهم ـ لعنهم الله ـ عكا. وكان صلاحُ الدِّين يعوِّل عليه كثيراً، واستنابه بالدِّيار المِصْرية مُدَّة، ثم أعطاه حلب، ثم الكَرَك وأعماله، ثم حَرَّان وما يتعلَّق بها، ثم جرى بعد وفاة أخيه بينه وبين أولاده أمورٌ سَبَقَ ذِكْرُها إلى أن استقرَّ له المُلْك.

قال أبو المُظَفَّر: امتدَّ مُلْكه من بلاد الكُرْج إلى هَمَذَان والجزيرة والشَّام، ومِصْر، والحجاز، واليمن، وكان ثَبْتاً، خليقاً بالمُلْك، حَسَنَ التَّدْبير، حليماً، صَفُوحاً، عادلاً، مجاهداً عفيفاً، دَيِّناً متصدِّقاً، آمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، طَهَّر جميعَ ولاياته من الخمور والخواطئ والقمار والمخانيث والمكوس والمظالم، وكان الحاصِلُ من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مئة ألف دينار، فأبطل الجميع لله تعالى. وكان واليه المبارز المعتمد ـ رحمه الله ـ قد أعانه على ذلك، وأقام رجالاً على عِقاب قاسيون، وجبل

---

(١) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٣٥٠ ـ ٣٥٢، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، التكملة للمنذري: ٢/ ٤٣٠ ـ ٤٣١، وفيات الأعيان: ٥/ ٧٤ ـ ٧٩، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١١٩ ـ ١٢٠، تاريخ الإسلام (ت ٣٤٠، وفيات سنة ٦١٥ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١١٥ ـ ١٢٠، العبر للذهبي: ٥/ ٥٨، الوافي بالوفيات: ٢/ ٢٣٥ ـ ٢٣٨، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، السلوك للمقريزي: ج١/ق١/ ٢٢٥ ـ ٢٣٠، شفاء القلوب: ٢٠٠ ـ ٢٢٩، النجوم الزاهرة: ٦/ ١٦٠ ـ ١٧٣، شذرات الذهب: ٥/ ٦٥، ترويح القلوب: ٤٢، وقد سلف كثير من أخباره في «كتاب الروضتين».

الثَّلج، وحوالي دمشق بالجامكية والجراية، يحرمون أحداً يدخل دمشق بمنكر، فكان أهل الفساد يتحيَّلون ويجعلون زُقاقَ الخَمْرِ في الطُّبول، ويدخلون بها إلى دمشق، فمنع من ذلك(١).

قال: وبلغني أن بعضَ المغنيات دَخَلَتْ على العادل في عُرْسٍ، فقال لها: أين كنتِ؟ قالت: ما قدرت أجيء حتى وفيت ما عليَّ للضَّامن. فقال: وأي ضامن؟ قالت: ضامن القِيان. فقامتْ عليه القيامة، وطلب المعتمد، وأنكر عليه، وقال: والله لئن عاد بلغني مثل هذا لأفعلَنَّ ولأصنعنَّ(٢).

قال: ولقد فعل العادل في غلاء مِصْر عقيب موت العزيز ما لم يفعله غيرُه؛ كان يخرج بالليل بنفسه ومعه الأموال يفرّقُها في أرباب البيوتات والمساكين، ولولاه لمات النَّاس كلُّهم، وكفَّن في تلك الأيام من ماله ثلاث مئة ألف من الغرباء(٣). وكان إذا مَرِضَ أو تشوَّشَ مزاجُه خَلَعَ جميع ما عليه وباعه حتى فرسَه، وتصدَّق به(٤).

قلتُ: وكان لما عَزَلَ القاضي زكي الدين الطاهر عن قضاء دمشق، وولاه
١١٢ القاضي جمال الدين بن الحَرَسْتاني تعصَّبَ وكيلُ بيت المال يومئذٍ، وأثبتَ على زكي الدِّين محضراً يتضمَّن عشرين ألف دينار مِصْرية أودَعَها قيمازُ النَّجْمي عند والده محيي الدين برسم فَكَاكِ أسرى، وذلك بعد عَزْله بنحو من شَهْر. وبلغني أنَّ القاضي جمالُ الدِّين بنُ الحرستاني تأنَّى في إثباته، واستقصى في تزكية الشُّهود جَهْدَه وطاقته، ولما عَلَّم عليه بالثبوت، قام الوكيل الجمال المِصْري، فقال القاضي: إلى النار وأنا وراك(٥). وذلك لعِلْمه بأنَّ القضية كانت بطريق

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ).
(٢) المصدر السالف.
(٣) تعقبه الذهبي في «تاريخ الإسلام» بقوله: هذا خسف من لا يتقي الله فيما يقوله.
(٤) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ).
(٥) تركيب عامي يعني: وأنا لاحق بك.

التعصُّب والأغراض، وكان ذلك بثلاثة وقيل بشهادة اثنين: أحدهما ابن عوضه، والآخر أبو محمد الخَشَّاب الأقط، وقد رأيتُهما، وكان كلُّ واحدٍ منهما في قلبه على القاضي حقد بسببِ حكومةٍ حَكَمَ بها عليه. أما ابنُ الخَشَّاب فكان أَقَرَّ ببستانٍ له لأولاد أخيه، وأظنُّه وَقَفَهُ عليهم، ثم أراد إبطالَ ذلك، والرجوعَ فيه، فلم يمكنه القاضي، وهذا البُسْتان تحت نهر يزيد قُبالة الجنينة المختصَّة بي مِنْ فوقه، وأخذ خَطَّ الزكي بالمبلغ في ذِمَّته في السَّابع والعشرين من جُمادى الأُولى، وشَرَعَ القاضي في بيع ما يملكه من كُتُبٍ وغيرِها، واستدانَ من النَّاس ما حمله في وفاء ذلك، فذكرتْ بعضُ حظايا العادل أنها رأت النَّبيَّ ﷺ في المنام وهو يوصيه بالقاضي، فأسقطها عنه[1]، وَرَدَّ المالَ عليه على رؤوس الأشهاد؛ أنزل به من القلعة جِهاراً في طَبَقٍ، وأنا رأيته محمولاً إلى دار القاضي صحبة القاضي الأشرف ابن الفاضل والجمال الوكيل وقاضي العسكر وابن التِّنِّبي بين الصَّلاتين من يومِ الأحد الحادي والعشرين من رجب سنة اثنتي عشرة، ثم رَدَّه إلى القضاء بعد موت ابنِ الحرستاني، وبلغني أنَّ القاضي طَلَبَ جَرْحَ الشُّهود، فلم يَجْسُر أحدٌ على ذلك إلا الثِّقَّة عنتر، كان يتولَّى عقود الأنكحة بالمدرسة التقوية، فبلغ ذلك العادل، فتبسَّم، وقال: من عادة عنتر الجَرْح.

قال أبو المُظَفَّر: وسببُ موته انزعاجُهُ من الخبر الذي جاءه من دِمْياط أنَّ الفرنج استولوا على بُرْجِ السِّلْسِلة، فَدَقَّ بيده على صَدْره، وأقام مريضاً إلى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة، فتوفِّي بعالقين، وكان المُعَظَّم قد كَسَرَ الفرنج على القيمون خامس جُمادى الآخرة. ولما توفي العادِلُ لم يعلم بموته غير كريم الدِّين الخِلاطي، فأرسل الطَّيرَ إلى المُعَظَّم بنابُلُس، فجاء المُعَظَّم يوم السبت

(١) ذكر ابن أبي أصيبعة نحو هذه القصة في «عيون الأنباء»: ٧٢٩ ـ ٧٣٠، ولكنه جعلها بين العادل ومحيي الدين ابن الزكي والد الطاهر. ورواية أبي شامة أوثق.

إلى عالقين، فاحتاط على الخزائن، وصبَّر العادل، وجَعَله في مِحَفَّةٍ، وعنده خادِمٌ يروِّحُ عليه، وقد رَفَعَ طَرَفَ سِجَافها، وأظهر أنَّه مريضٌ، ودخلوا به دمشق يوم الأحد، والنَّاس يُسَلِّمون على الخادم، وهو يومئُ إلى ناحية العادل؛ أي أنه يُعْلِمُهُ بمن يُسَلِّم، ودخلوا به إلى القلعة، وكتموا موته[1].

قال: ومن العجائب أنهم طلبوا له كفناً، فلم يقدروا عليه، فأخذوا عِمامة الفقيه النَّجيب ابن فارس، فكفَّنوه بها، وأخرجوا قُطْناً من مِخَدَّةٍ، فلفُّوه به، ولم يقدروا على فأس، فسرق كريمُ الدِّين فأساً من الخندق، فحفروا له به في القلعة، وصلَّى عليه وزيرُه ابنُ فارس، ودفنوه في القلعة[2].

قال: وكنتُ قاعداً إلى جانب المُعَظَّم عند باب الدار التي فيها الإيوان، وهو واجِمٌ، ولم أعلم بحاله، فلما دُفِنَ أبوه قام قائماً، وشَقَّ ثيابه، ولَطَمَ على رأسه ووجهه، وكان يوماً عظيماً، وعَمِلَ له العزاء ثلاثة أيام بالإيوان الشَّمالي[3].

قال: ولما رأيتُ المعظم قد بلغ به الحال ما بلغ تكلَّمْتُ في أول يومٍ، فلمَّا انقضى العَزَاء عتبني المعظم، وقال: يا سُبْحانَ اللهِ، أنتَ صاحبُ العزاء، أيش كان حاجة إلى كلامك مع ابن الحنبلي! وكان النَّاصح قد تكلَّم في ذلك اليوم، فقلتُ: لابُدَّ من الكلام. فقال: إذا كان ولابُدَّ فليكن في اليوم الثَّالث، ولا يتكلَّم معك أحد. فامتثلتُ ما أمره، وعُمِلَ له العزاء في جميع البلاد، ونودي ببغداد: مَنْ أراد الصَّلاة على الملك العادل الغازي المجاهد في سبيل الله فليحضر إلى جامع القَصْر. فحَضَرَ النَّاسُ، ولم يتخلَّفْ سوى الخليفة، وصَلُّوا
١١٣ عليه صلاة الغائب، وترحَّموا عليه، وتقدَّم إلى خطباء الجوامع بأسرهم، ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة[4].

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ).

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) المصدر السالف.

قال: وفوَّضَ إليَّ المُعَظَّمُ تُرْبَةَ بدرِ الدِّين حسن في اليوم الثَّالث[١].

قلتُ: هو بدر الدِّين حسن أحدُ أولاد الدَّاية، هو وأخوتُهُ من أكابر أمراء نور الدين بن زَنْكي رحمه الله، وتربتُه هي التي على نهر ثورا عند جسر كحيل في طريق الجبل، قريب المدرسة الشِّبْلية، فكان أبو المُظَفَّر ـ رحمه الله ـ يسكنها، ويدرِّس بالمدرسة الشِّبْلية، ومنها يَصْعَدُ إلى الجبل، وينزل إلى دمشق كلَّ يوم سَبْت لمجلس الوعظ[٢]، وما أكثرَ ما كنتُ أراه جالساً في شُبَّاك التُّرْبة أو في الصُّفَّة الخارجة في النهر، ومعه كتابٌ يطالع فيه أو ينسخ منه، فما أطيبَ ما كانت تلك الأيام، وما أرغدَ عيشَ تلك الأعوام.

قال أبو المظفر: وكان للعادل عِدَّةُ أولادٍ، منهم: شمس الدين مودود والد الجَوَاد يونس، والكامل محمد، والأشرف موسى، والمُعَظَّم عيسى، والأوحد أيوب، والفائز إبراهيم، والمُظَفَّر شهاب الدين غازي، والعزيز عثمان، والأمجد حسن؛ وهما شقيقا المُعَظَّم، والمغيث محمود، والحافظ رسلان، والصَّالح إسماعيل، والقاهر إسحاق، ومجير الدين يعقوب، وقُطْب الدِّين أحمد، وخليل أصغرهم، وتقي الدِّين عَبّاس[٣].

قلتُ: وهو آخر مَنْ بقي منهم، وهو الآن في سنةِ تسع وخمسين وست مئة حيٌّ بدمشق.

قال: وكان الصَّالح إسماعيل وقُطْب الدِّين أحمد بدمشق لمَّا مات العادل، فأمر المعظم الصَّالحَ فتوجَّه إلى بُصْرى، وأحمدَ فتوجَّه إلى مِصْر. وكان للعادل عِدَّةُ بناتٍ أجلُّهنَّ ضيفة خاتون صاحبة حلب أم الملك العزيز بن الظاهر[٤].

---

(١) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ).

(٢) انظر وصف أبي شامة لمجالس وعظه، ص ١٦٠ من هذا الجزء.

(٣) مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ).

(٤) المصدر السالف.

قال: ولما دخل رَجَب رَدَّ المُعَظَّم المكوسَ والخمور، وما كان أبوه أبطله. فقلتُ له: قد خَلَفْتَ سيفَ الدِّين غازي ابن أخي نور الدين، فإنَّه كذا فَعَلَ لمَّا ماتَ نورُ الدِّين. فاعتذر بقِلَّة المال، وَدَفْعِ الفرنج[١].

قال: وسارَ المُعَظَّم إلى بانياس، وأرسل الصَّارم التِّبْنيني وهو بتبنين في تسليم الحصون، فأجابه، فأخرب بانياس، وسار إلى تبنين فأخربها وهَدَمها، وكانت قُفْلاً للبلاد، وملجأً للعباد، وأعطى جميعَ بلاد شركس لأخيه العزيز عثمان، وزوَّجه ابنةَ شركس، ونَزَلَ الصَّارمُ وولدُه وأصحابُهُ من الحصون، فأكرمهم المعظم، وأحسنَ إليهم، وأظهرَ أنه ما أخرب بانياس وتبنين إلا خوفاً من استيلاء الفرنج عليهما[٢].

قال: وبَعَثَ الكامِلُ إلى المُعَظَّم بالخِلَع، وقال: أدركني. وجاءتِ الفرنج متجاوزين دمياط، فنزلوا على شِرْمَسَاح، وأخلى لهم المسلمونَ الخيام، فطَمِعُوا، ثم رَجَعَ عليهم الكامل، فكسرهم، وقتلَ منهم خلقاً كثيراً، فعادوا إلى دِمْياط[٣].

وفيها توفي ملكُ الرُّوم عز الدين كَيْكَاوس[٤]، وكان جباراً، ظالماً، سفَّاكاً للدِّماء، ولما عاد إلى بلده من كسرة الأشرف له بحلب اتَّهم أقواماً من أمراء دولته أنَّهم قَصَّروا في قتال الحلبيين، فَسَلَقَ بعضَهم في القُدُور، وجعل آخرين في بيتٍ وأحرقهم، فأخذه الله تعالى بغتة، فماتَ فجأةً سكران، وقيل: ابتلي

---

(١) مرآة الزمان (حوادث سنة ٦١٥هـ)

(٢) المصدر السالف.

(٣) المصدر السالف.

(٤) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٣٤٧ ـ ٣٥٠، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، مفرج الكروب: ٣/ ٢٦٣ ـ ٢٦٤، تاريخ الإسلام (ت ٣٢١، ٤٠٠، وفيات سنة ٦١٥ هـ)، سير أعلام النبلاء: ٢٢/ ١٣٧ ـ ١٣٩، الوافي بالوفيات: ٢٤/ ٣٨٤، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٢٣ ـ ٢٢٤.

في بدنه، فتقطَّع. وكان أخوه علاء الدين كَيْقُباذ محبوساً في قلعةٍ وقد أمر بقتله، فبادر الأمراءُ فأخرجوه، وأقاموه في الملك، وكانت وفاة كيكاوس في شوَّال، وهو الذي أطمع الفرنج في دمياط.

وفيها توفي نجمُ الدولة نجاح بن عبد الله، شرابي[1] الخليفة، مملوك الإمام الناصر.

وكان جَوَاداً، سَمْحاً، عاقلاً، دَيِّناً، كثيرَ الصَّدقات، حَسَنَ المحضر، مُحْسِناً إلى النَّاس، يحبُّ المساكين، ويُعَظِّمُ أهلَ الدِّين، ويأخذ للضَّعيف من ١١٤
القوي، وكان يسمَّى سلمان دار الخلافة، وكان ملازماً للخليفة، لا يغيبُ عنه ساعةً واحدةً، وكان أسمر اللَّوْنِ، جميلَ الصُّورة، فحلاً، ولما توفي في هذه السَّنة أمر الخليفة أن لا يتخلَّف عن جِنازته أحدٌ؛ لا وزير ولا غيرُه، وصلَّى الخليفة عليه تحت التَّاج، وحَزِنَ عليه حُزْناً كثيراً، وأُخرج تابوتُهُ من البَدْرية، ومشى العالم بين يديه إلى جامع القَصْر، وكان بين يدي جِنازتِهِ مئةُ بقرة وألفُ شاةٍ، ومئة قوصرة تمراً، ومئة حمَّال على رؤوسهم الخبز، وعشرون حمالاً على رؤوسهم ماء الوَرْد، ومماليكه قد جَزُّوا شُعورهم، ولَبِسُوا المسوحَ، والضَّجيجُ والبكاءُ قد ملأ بغداد، ولم يُرَ في الإسلام مِثْلُ ذلك اليوم، وعَبَروا به إلى الجانب الغربي إلى تُرْبة أم الخليفة، ودُفِنَ بين يدي القُبَّة التي فيها أم الخليفة، وتصدَّق عنه الخليفة من مال نجاح بعشرة آلاف دينار على المشاهد: مشهد علي، والحسين، وموسى بن جعفر، رضي الله عنهم، وبَعَثَ بمثلها إلى مكَّة والمدينة، وأعتقَ الخليفةُ مماليكه، وكانت له خمس مئة مجلَّدة، فوقفها في تُرْبة أم الخليفة، وكتَبَ عليها اسم الشَّرابي[2].

---

(١) له ترجمة في الكامل: ١٢/٣٥٣، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، التكملة للمنذري: ٢/٤٤٠ ـ ٤٤١، تاريخ الإسلام (ت ٣٣٦، وفيات سنة ٦١٥ هـ)، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٥ هـ).

(٢) في (ك) و(ع) و(س) زيادة: ذكر الشيخ عز الدين بن الأثير في تاريخه الكبير [١١/٤١٠] في =

وفيها توفي القاهر صاحبُ المَوْصِل(١)، وتَرَكَ ولداً صغيراً اسمه محمود، وكان طفلاً، فأخرج بدر الدين لؤلؤ زَنْكياً أخا القاهر من المَوْصِل، واستولى عليها.

واسم القاهر عِزُّ الدِّين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن عِزّ الدين مسعود بن مودود بن زَنْكي، ثم ثَبَتَ مُلْك بلادِ المَوْصِل لبدر الدين لؤلؤ، فَسُمِّي بالملك الرَّحيم، ثم أولاده من بعده إلى الآن(٢)، وبلغني أنَّ لؤلؤاً سقى القاهر سُمّاً، فمات. ثم أدخل ابنه محموداً بعد ذلك حماماً حامياً، وأغلقَ عليه البابَ، واشتدَّ كَرْبُه وعَطَشُه، فاستغاثَ: أخرجوني، واسْقُوني ماءً، ثم اقتلوني، فأخرج وقد تغيَّرَتْ خِلْقَتُه، وكانَ مِنْ أحسن النَّاس صورةً، فأُسقي ماء، ثم خُنِقَ بوتر(٣).

= حوادث سنة تسع وستين وخمس مئة أنَّ الأمير أبا العباس أحمد بن الخليفة يعني المستضيء، وأحمد هو الإمام النَّاصر لدين الله، قال ابن الأثير: وهو الذي صار خليفة بعده، سقط من قُبَّة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح، فألقى نفسه بعده، وسَلِمَ ابنُ الخليفة ونجاح، فقيل لنجاح: لم ألقيت نفسك؟ فقال: ما كنت أريد البقاء بعد مولاي. فرعى له الأمير أبو العباس ذلك، فلما صار خليفة جعله شرابياً، وصارت الدولة جميعها بحكمه، ولقبه الملك الرحيم عز الدين، وبالغ في الإحسان إليه، والتقديم له، وخدمه جميع أمراء العراق والوزراء وغيرهم.

قلت: وهذه الزيادة ليست من أبي شامة، ولا تشبه أسلوبه في اقتباساته، ثم إن زيادات هذه النسخ لا يوثق بها، وانظر حاشيتنا رقم ٣ ص ٥٩ من هذا الجزء.

(١) له ترجمة في الكامل: ١٢/ ٣٣٣ ـ ٣٣٥، مرآة الزمان (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، التكملة للمنذري: ٢/ ٤٢٨، المختصر في أخبار البشر: ٣/ ١١٨، تاريخ الإسلام (ت ٣٣٣، وفيات سنة ٦١٥ هـ)، البداية والنهاية (وفيات سنة ٦١٥ هـ)، السلوك للمقريزي: ج١/ ق١/ ٢٣٦، النجوم الزاهرة: ٦/ ٢٢٥، شذرات الذهب: ٥/ ٦٢.

(٢) يعني سنة (٦٥٩ هـ) كما نص على ذلك أبو شامة مراراً، وانظر ص ٣٠٧ من هذا الجزء.

(٣) في (ك) و(ع) و(س) زيادة: قلت: كان اسم ولده الذي ولي بعده نور الدين أرسلان شاه، وكان قد سماه أبوه علياً، فلما مات جده نور الدين أرسلان شاه في سنة سبع وست مئة، سموه باسمه أرسلان شاه، وأقام قليلاً، ومات في سنة خمس عشرة أيضاً، وتولى أخوه محمود، =

قال أبو المظفر: وفيها قَدِمَ الصَّاحب صفي الدِّين عبد الله بن علي المعروف بابن شُكْر وزير العادل. كان العادل قد نَقَمَ عليه، فنفاه إلى الشَّرْق، فمضى إلى آمد، فأقام بها، فلما ماتَ العادل كَتَبَ ابنهُ الكامل من مِصْر إليه يطلبه، فَقَدِمَ دمشق في هذه السنة، ونزل بظاهرها ببيت رانس[1] في دار المُؤَيَّد العقرباني، فخدمه المؤيِّد، وكان قد قَلَّ نظره، فأقام أياماً، ثم توجَّه إلى مِصْر[2].

قلتُ: وقيل: إنَّ قدومه من الشَّرْق كان بعد هذه السنة، وقرأ بهاءُ الدِّين بن أبي اليُسْر بين يديه ببيت رانس مقامةً في مدحه من إنشاء الشيخ أبي الحسن السَّخاوي ـ رحمه الله ـ سمَّاها «محاضرة الفقهاء ومحاورة الفهماء في أوحد الكبراء وسَيِّد الوزراء»، وهي مقامة جليلة، حسنة لفظاً ومعنى. ١١٥

وكان خليقاً بالوزارة لم يأتِ بعده فيها مثله، وكان متواضعاً يسلِّم على النَّاس الذين يمرُّ بهم وهو راكب، ويكرم الفقهاء، ويحترمهم، ويعمِّر أوقافهم ويثمِّرها، ويوسِّع لهم في الجامكيات. وفي أيامِهِ بُنيت العِمارة بفوَّارة جيرون والمسجد والبركة والشَّاذروان وغير ذلك، رحمه الله، وتوفي سنة ثلاثين وست مئة، كذا ذكر سِبْط ابنُ الجوزي، وهو وَهَم، وإنما توفي سنة اثنتين وعشرين كما سنذكره[3].

= وكان تقدير عمره يوم مات عشر سنين، واستمر محمود والأمير بدر الدين لؤلؤ أتابكه إلى أن مات جده لأمه السلطان مظفر الدين صاحب إربل في شهر رمضان سنة ثلاثين وست مئة، فانقطع خبر محمود، واستولى بدر الدين بالأمر.

قلت: ظاهر سياق الخبر يدل أنه ليس من أبي شامة، وإنما هو استدراك من قارئ عليه، وتفصيل ما أجمل.

(١) بيت رانس أو أرانس، قرية كانت عامرة، وهي قريب عقربا، ذكر ابن عبد الهادي مسجدها، انظر غوطة دمشق لمحمد كرد علي: ص ١٦٤.

(٢) مرآة الزمان (حوادث سنة ٦١٥ هـ).

(٣) انظر ص ٣٨٤ من هذا الجزء.

وذكر العِزُّ بن تاج الأُمناء: أن في سنة تسع وست مئة عُزِلَ الوزير الصَّفي بن شُكْر وزير السُّلْطان بمصر في مضمون غضبٍ أظهَره إدلالاً على السُّلْطان، وسعى الكامل فيه وتحرير أمره وإلزامه بيته، ثم وَرَدَ كتابُ الكامل من مِصْر إلى أخيه المُعَظَّم بدمشق بالحوطة على أملاك الوزير ابن شُكْر بها سابع جُمادى الأُولى من السنة.

قال: وفي سابع وعشرين رمضان من السنة عُزِلَ ابن الوزير بن شُكْر من ديوان دمشق، وقد كان مستمرًا به في نيابة والده، وتولاه الشَّمْسُ بنُ النَّفيس مستقلاً بأموره بكتاب عادليٍّ وَصَلَ من مِصْر.

قال: وفي رابع شعبان وَرَدَ الخبرُ مِنْ مِصْر بإخراج الصَّفي بن شُكْر من القاهرة موكلاً به، واعتقاله بظاهر بِلْبِيس في دار الجاولي المُعَظَّمي، ثم إرساله إلى دمشق.

قال: ووصل عاشر ربيع الآخر من سنة أربع عشرة منفياً من الدِّيار المِصْرية إلى الكسوة، فأقامَ بها بقدر ما قُضِيَت له أشغاله بدمشق، وتولَّى المعتمد القيام بها، وكان تقدَّم من العادل كتابٌ إلى المعتمد بأن لا يمكنه من المقام بدمشق أكثر مما يقضي أشغاله، فلما تحقَّق ذلك لم يدخل البلد، ورحل من الكسوة نهار الأحد سادس عشر الشَّهر، فباتَ بزِبْدِين من الغوطة، ورحَلَ منها إلى القُصَيْر في الغد، ومن القصير إلى جهة الفُرَات على طريق البريَّة، وخَرَجَ إليه جماعةٌ من أعيان البلد جهراً وسِرّاً إلى الكسوة وإلى القُصَيْر، ولمَّا قَطَعَ الفُرات لم يمكِّنه الأشرفُ من المقام ببلاده، فرجع إلى سَلَمْيه، والتجأ إلى صاحب حماة، فآواه وأحسن إليه، فأنكر السُّلْطان ذلك عليه، وأمره بإبعاده عنه، فلم يُمْكِنْه مخالفته، وتولَّى قاضي العسكر خليل الرِّسالة في إخراجه من حماة، فأُخرج موكلاً به إلى أن عاد قطع الفرات قاصداً صاحِبَ آمد، فتلقَّاه بنفسه، وبالغ في إكرامه[1].

---

(١) إلى هنا ينتهي الخرم في نسخة الأصل، انظر حاشيتنا رقم ١ ص ٢٩٨ من هذا الجزء.